عشائر الشام (١)

-٢-

تاريخ البدو . — نشأت العشائر في الطبقات الثلاث المذكورة المنتشرة في بوادي العراق والشام ومصر وأريافها من أواسط الجزيرة العربية « الحجاز ونجد » وكانت تهاجر على هيئة موجات تتابع ورودها منذ مئات السنين ولا تزال حتى يومنا هذا . وتعزى هذه الهجرات الى انه في كل قرن او قرنين يزداد عدد سكان تلك الاواسط وتضيق بوفرة مواليدها فتصير مواردها ومعاطنها غير كافية لسد الحاجة ، او تأتي أعوام قحط جائحة او تحدث فتن شعواء بين أولئك السكان فتضطر موجة منها الى ان تنزح وتزحف نحو الشمال وتفتش عن بقاع اوسع وفياف أمرع ، فلا تجد ذلك الا في اطراف الاقطار المذكورة . فالموجة القادمة اذا وجدت أمامها عشيرة سبقتها في الهجرة تسعى لدفعها واحتلال مكانها بالقوة والغلبة . فاذا ظفرت تضطر السابقة المغلوبة الى مزاحمة الاسبق والاضعف منها ، وهكذا يزحم المتأخر المتقدم والقوي الضعيف كل في نوبته وينازعه على منزله ومرتعه . وحينما يحرم المغلوب مجال النجعة يترك رعي الابل ان كان من الطبقة الاولى وينصرف لرعي الغنم فيصير من أهل الطبقة الثانية ، ثم اذا ازداد الضغط وضاقت المراعي القريبة يترك الغنم وينصرف الى الحرث والزرع فيصير من أهل الطبقة الثالثة ، ومن هذه يتدرج الى التحضر والاستقرار التامين .

وقد ذكر المؤرخون ان البدو كانوا يفدون الى الشام (بلاد الخمر والخمير والديباج والحرير) منذ القرن الأول للميلاد وان أقدم من عرف من قبائلهم الوافدة الى شماله هم التنوخيون والى وسطه الضجاعم من سليح وهم بطن من قضاعة . ولم يزل هؤلاء سادة بوادي الشام حتى جاء الغساسنة في أواخر القرن الرابع الميلادي واستظهروا

(١) انظر مجلة المجمع م ١٦ ص ٤٦٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على انفجاعهم وعظم شأنهم وحالفوا الرومان وصاروا عمالهم على أبناء قومهم العرب الضاربين في تلك البوادي كما كان اللخميون المناذرة حلفاء الفرس وعمالهم على عرب بوادي العراق ولم يأت القرن السادس للميلاد حتى وصلت القبائل العربية شمالاً إلى الجزيرة الفراتية واستقرت فيها على نحو ماعملته ربيعة ومضر وبكر فسميت تلك الديار باسمها حتى الآن ولما فتح المسلمون الشام وجدوا فيه من القبائل العربية المتنصرة قبائل لخم وجذام وكلب وعاملة وبهراء وغسان وتنوخ وتغلب . .

وقد زادت هجرات القبائل بعد الفتح الاسلامي إلى العراق والشام ومصر وانتشرت في هذه الأقطار . وإذ كان بحثنا منحصراً في اعراب الشام نقول ان قسماً من تلك القبائل تدير وقتئذ بعض بقاع الشام واختلط بالشعوب الشامية القديمة فادمجها في قوميته وانطقها بلغته ومن لم يتحضر وفضل عيش البداوة ظل يضرب في بوادي الشام وأريافه ويشترك في أحداثه وكوارثه مسيئاً تارة ومحسناً أخرى وقد ذكر المؤرخون أسماء بعض من كان من هؤلاء خلال القرون الثلاثة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين كبني كلاب وبني القين وبني نمير وبني عقيل وبني مخزوم كما ظلوا يذكرون من حين إلى آخر في سياق الأخبار أسماء بعض الرجال من القبائل المتنصرة المذكورة وقد أسلم معظمها بعدئذ واشترك في الفتوح .

ثم عظم شأن بعض هذه القبائل وأسس دويلات في زمن ضعف الخلفاء العباسيين والفاطميين . وكان أشهرهم بني حمدان التغلبيين في حلب . وقد عد ابن خلدون من القبائل التي كانت منتشرة في القرن الرابع مابين الشام والجزيرة بني طيء وبني كلاب وبني كعب وبني العجلان وبني عقيل وبني قشير « كانوا كالرعايا لبني حمدان أصحاب حلب يؤدون إليهم الاتاوات وينفرون معهم في الغزوات » . وقد شق بعض هؤلاء عصا الطاعة على سيف الدولة بن حمدان وعاثوا في اعماله وهو يداريهم لاشتغاله بحروب الروم وهم يتنمرون شأن البدو كلما رأو انشغال ذوي السلطان عنهم أو ضعفهم ولما عيل صبره منهم هاجمهم وأوقع بهم في مروج سلمية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم لحق بهم إلى الفرقلس والغنتر والجباة « ثلاث قرى في سيف بادية حمص » وإلى تدمر وأرك والسخنة فبدد شملهم وردم آبارهم حتى استأمنوا وبذلوا له طاعتهم وللمتنبي الشاعر قصيدة رائعة في وصف هذه المواقع مطلعها : « طوال قنًا تطاعنها قصار » . وله قصيدة أخرى يشفع ببني كلاب في موقعة أخرى في نواحي بالس « شرقي حلب على الفرات » مطلعها : « بغيرك راعياً عبث الذئاب » .

ويظهر أن اعراض الخلفاء العباسيين والفاطميين عن بني قومهم العرب وخوفهم من عصبيتهم وشدة شكيمتهم واستخدامهم الترك والديلم في جيوشهم ومناصب دولتهم قد فت في عضد العرب عامةً والبدو خاصةً وأبعدهم عن المساهمة في الامرة والقيادة وصرف القبائل نحو البادية وخشونتها وجعلهم يثورون ويحتجنون الحكم والسيطرة في بعض الأماكن والأزمان كما اهتبلوا الغرر . فقد استغل أمر القبائل عند فشل دولة بني حمدان في القرن الخامس وتقاسموا مناطق السيطرة في الشام . فكان شماله من حصة بني مرداس الكلابيين ووسطه لبني عليان الكلبيين وجنوبه لبني الجراح الطائيين ، ثم ورث بنو عقيل ملك الشمال من بني مرداس إلى أن قضى عليهم السلجوقيون فانتهت بهم سيادة العرب الخضر في مدن الشام .

أما بقية القبائل التي ظلت بادية فقد ضعف شأنها وخمل ذكرها فمنها من ظل يضرب في فيافي الجزيرة العربية ومنها من اندمج في بني طيء لما عظم شأنهم في شمالي الشام وصاروا رؤساء البادية .

ويظهر أنه كان في عهود الدول الإسلامية الغابرة رئاسة عليا على بادية الشام باسم (أمير عرب الشام) ونالها بعضهم باسم (ملك العرب) ، وكانت هذه الوظيفة وكذلك إمارات بقية العشائر توجه بمراسيم شريفة ، ذكر القلقشندي في صبح الأعشى عدة نماذج منها ، وكان يطلب من أصحابها أن يقوموا بحفظ السابلة أيام السلم ويمنعوا أعرابهم من العيث والنهب وأن يتأهبوا للجهاد ويعاونوا العساكر السلطانية أيام الحرب وأن لايفارقوا البلاد ولا ينجعوا (حتى يعبس في وجهها السحاب ، ولا يعودوا حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب) إلى آخر ماهنالك من الأوامر والقيود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا يدل على أن قبائل البدو في عهد الملوك الايوبيين والسلاطين المماليك كانت — على خلاف عهد العثمانيين التي أهملت فيه — مقيدة بتقاليد ومكلفة بواجبات إدارية وحربية تكافأ إذا برت بها وتعاقب إذا خترت .

وصارت الرياسة في طيئ إلى بني ربيعة . قالوا : وكان ربيعة امير عرب الشام في القرن السادس في عهد الأتابك طغتكين ، ثم خلفه في الامارة ابنه مراء بن ربيعة الذي ذكر له أبو الفداء (ج ٢ ص ٢٤٣) معركة مع الصليبيين انتصر عليهم فيها . ثم انقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ ، ولكل من الثلاثة أمير مختص به وهم آل فضل بن ربيعة وآل مراء بن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل وكانت منازل آل فضل في الشمال من حمص إلى وادي الفرات وأطراف العراق ومنازل آل مراء في حوران والجولان ومنازل آل علي في مرج دمشق وغوطتها ولكل من الثلاثة لواحق من أفاريق الأعراب في تلك الأزمان . أما المنزلة الكبرى والرئاسة العليا فقد كانت في يد آل فضل وهم كما قال القلقشندي (اتصلوا برجال السلطنة فولوهم على احياء العرب واقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا برياستهم على آل مراء وغلبوهم على المشاتي ... الخ) .

وفي زمن الملك العادل أبي بكر كانت الأمرة على اعراب بادية الشام في يد أحد أمراء آل فضل واسمه مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ولما توفي مانع سنة ٦٣٠ ولي عليهم ابنه مهنا فحضر هذا مع المظفر قطز قتال جيش التتار سنة ٦٥٨ في عين جالوت (غور بيسان) فأجازه قطز بسلمية نزعها من الملك المنصور بن الملك المظفر التقوي الأيوبي صاحب حماة وأقطعها له (أبو الفداء ج ٣ ص ٢١٤) ، ثم ولى الملك الظاهر بيبرس ابنه عيسى ووفر له الاقطاعات على حفظ السابلة . وعيسى هذا على ماذكره ابن اياس في تاريخه (ج ١ ص ١٠٢) هو الذي جاء بالإمام أحمد العباسي بعد حادثة هولاكو في بغداد وكان مختبئاً عند اناس من قبيلته وأوصله إلى مصر إلى الملك الظاهر بيبرس وشهد هو وقومه أنه من نسل العباسيين فبويع له بالخلافة واستمرت هذه الخلافة الشكلية فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأعقابه إلى أن أستخلصها منهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ . وقد كانت لعيسى هذا منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بيبرس ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون وسماه ملك العرب وزاد في إقطاعه لحسن سيرته ولأنه في وقعة الملك المنصور مع التتار بحمص سنة ٦٨٠ جاء وقت الوقعة بعربه من سلمية واعترض التتار من خلفهم فتمت هزيمة التتار به . ولعل عيسى هذا هو الذي قال عنه كاتب جلبي المتوفى في سنة ١٠٦٨ في جغرافيته (جهان نما) انه كان في هذه المعركة العظيمة حاملاً ريشة على رأسه فلقب بأبي ريشة وأنه هو الذي نال من الملك المنصور قلاوون عطاءً عظيماً فاشترى به عبيداً ومماليك اعتقوا بعد حين ودعوا بالموالي وبقيت أعقابهم إلى يومنا هذا ملتفة حول هؤلاء الأمراء آل أبي ريشة وانضم إليهم بعد عدد من شذاذ الأعراب اندمجوا في لفيفهم وحلفهم . فكان من مجموعهم (عشيرة الموالي) المستقرة في قضاء المعرة .

وبعد أن توفى الأمير عيسى ودفن في مقبرة الشيخ فرج شمالي سلمية على ماجاء في شذرات الذهب (ج٦ ص ٢٢) انقسم آل فضل إلى عدة أفخاذ أشهرها فخذ عيسى المذكور ، ولى الملك المنصور قلاوون من اولاده مهنا في الامارة فصار كبير آل عيسى النازلين في براري سلمية وحماة وتدمر بل امير بوادي الشام والعراق كلها .

وقد ردد ابو الفداء وابن الوردي في تاريخيهما والمقريزي في خططه ماكان للأمير مهنا بن عيسى في اواخر القرن السابع وأوائل الثامن من المكانة لدى سلاطين مصر ونوابهم في الشام وذكروا تدخله في بعض أمور الدولة ، وان من حسناته شفاعته للإمام احمد بن تيمية وسعيه لإخراجه من سجنه في قلعة مصر ثم التماسه نصب ابي الفداء ملكاً على حماة ، وعدوا من سيئاته وثباته وغاراته العديدة وانحيازه إلى ملوك العراق المغوليين . ثم فصل المؤرخون الخراب والدمار اللذين أتى بهما اولاده (آل مهنا) وأولاد اخوته واعقابهم في القرن الثامن مما أدى لخراب سلمية واعمال حماة والمعرة وحلب وكان له أثر كبير في تاريخ تلك الحقبة وما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان حيّار احد ابناء مهنا بن عيسى المذكور — وهو ممن لقيهم الرحالة ابن بطوطة في طريقه إلى الحج وضبط اسمه بالحاء المهملة — تقلد امارة البادية مدة ثم أورثها لأبنائه وأعقابه فعلا اسم آل الحيار وحمل اسم غيرهم من ابناء عمومتهم آل مهنا أو آل عيسى أو آل الفضل ، شأن العشائر التي تتبدل أسماؤها في كل قرن او قرنين تبعاً للمتأمر عليها ، وقد تسمى باسم اميرها او شيخها ثم باسم كل من أبنائه بعد وفاة الأب إذا انفصلت عن الأرومة وتفرعت كما جرى بآل فضل وآل عيسى المذكورين .

وقد ظلت الأمارة في يد آل الحيار طوال القرنين التاسع والعاشر وكان لهم سلطان على العشائر ، وقد ترجمهم القلقشندي في صبح الأعشى وابن تغري بردي في المنهل الصافي إلى أن ظهر في القرن الحادي عشر اسم آل أبي ريشة من فرق الحياريين ثم ظهر اسم الموالي . وقد وصل بعض المؤرخين كحيدر الشهابي والمحبي والمرادي وكاتب جلبي ونعيما الحلبي سلسلة أمراء الموالي الحاضرين والمعروفين الآن باسم آل أبي ريشة بالحياريين . واذن يكون هؤلاء الأمراء من أعقاب حيار بن مهنا بن عيسى آل الفضل الربيعي الطائي ، لا كما يزعمون ويزعم لهم بعضهم أنهم من نسل العباسيين . ومثلهم في هذا الزعم أمراء عشيرة الفضل في الجولان فهم من أعقاب (آل فضل) المذكورين ، لا من العباسيين وقد احتفظوا فيما يظهر باسم الجد الأعلى بعد ان نزحوا من انحاء سلمية وفارقوا أبناء عمومتهم ونديروا الجولان منذ قرون .

هذا وآخر الهجرات البدوية الكبيرة من أنحاء نجد نحو العراق والشام هي هجرة قبائل شمر في أواسط القرن الحادي عشر ، ثم هجرة قبائل عنزة في أواسط القرن الثاني عشر .

أصناف البدو . — إن العنصر الأول في المجتمع البدوي هو (البيت) ويعنون به العائلة . فالبيت يتألف من الرجل وامرأته وأولادهما العزب . لأن الولد إذا تزوج يضرب لنفسه خيمةً جديدةً على مقربةٍ من أبويه أي أنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يؤسس بيتاً حديثاً يسمى باسمه . والعائلات او البيوت القريب بعضها من بعض تؤلف (الآل) أو (الرهط) مثل آل المشهور من فندة الشعلان في الرولة ومثل آل مهيد من فندة المانع في الفدعان . وتجتمع الأرهاط فتؤلف (الفرقة) أو (الفندة) وجمعها فرق أو افناد مثل فندة الشعلان وفندة المانع المذكورتين . والفندة في الأصل عدة ارهاط من جد قريب لايكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الأفناد فتكون (العشيرة) او (الفخذ) مثل عشيرة الرولة وعشيرة الفدعان في عنزة . وتجتمع العشائر فتكون (البطن) او (الضنا) مثل ضنا مسلم وضنا بشر في عنزة .وتجتمع البطون فتؤلف (القبيلة) مثل شمر وعنزة . وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة . ويزعم رواة البدو ان القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه إلى قبيلته كبني صخر وبني خالد وغيرهم . والعشيرة تعترف بشيخ واحد . على أن اعترافها لايتجاوز القضايا العامة . وعدد بيوت العشيرة يختلف كثيراً . فقد يكون الفي بيت او ثلاثة آلاف بيت كما هو الحال في الرولة والاسبعة ، وقد يهبط هذا العدد إلى مئه وربما إلى خمسين كما هو الحال في بعض عشائر الطبقة الثالثة . وكلمة ضنا اختصت بقبيلة عنزة دون غيرها وقد رتبنا العشائر ووصفناها بحسب المناطق الجغرافية في الشام فبدأنا بأنحاء دمشق وانتهينا بأنحاء الجزيرة .

المشيخة وشروطها . — ويكون على رأس كل عشيرة رئيس يدعى شيخاً . وقد يكون هذا صغير السن دون العشرين ولا يرث ابن الشيخ المشيخة اذا لم تتوفر فيه الشروط . ولا ينال هذه إلا من كان ازكى رجال العشيرة واكثرهم معرفةً وبلاغةً وافرسهم يوم النزال واغناهم بالرزق والمال وابسطهم يداً بالكرم واقراء الضيف واوفرهم بعدد الأقارب والأنسباء . وتشمل سلطة الشيخ إعلان الحرب او عقد الصلح بعد أخذ رأي شيوخ العشيرة والأمر بالرحيل او النزول حين النجعة والظعن وحل الخلافات والمنازعات التي لاتحتاج لمراجعة القاضي (العارفة) وإدامة الوئام والألفة بين أبناء العشيرة واسترداد الأشياء المسلوبة وحماية الضعفاء والموافقة على عقود الزواج والطلاق وسلطة الشيخ مهما كانت بعيدة المدى ليست مطلقة بل محدودة بحقوق الملكية الشخصية .

يتبع وصفي زكريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net